أتصير سهم أجل الرقي غبارا ؟

خطرة شعرية فلسفية للمرحوم

الدكتور يعقوب صروف

ما الحياة ؟ أين كان الاحياء قبلما ولدوا والى اين يمضون بعد ما يموتون ؟ وما الحكمة في هذا الخلق ؟ لماذا يولد مائة طفل فلا يبلغ العشرين ثلاثون منهم ولا يبلغ الخمسين عشرة ولماذا تبيض السمكة مليون بيضة فلا يبلغ الا اثنان من اولادها اشدها وتثمر الشجرة الوفا من الاثمار قبلما يتفق لاحدى بزورها ان تنبت وتخلف نسلاً . وعلى م تظهر الازهار والرياحين في الغابات والادغال حيث لا تراها عين انسان ولا يتمتع بها ذوق حيوان

يحيلك العالم الطبيعي بسلسلة من العلل والمعلولات مفادها ان كل حلقة من حلقات الوجود متصلة بغيرها وان الغرض منها ترقية الاحياء بنوع عام . يقول لك ان قوى الطبيعة وميكروباتها تجتمع على عناصر الجماد فتحللها وتركبها وتجعلها غذاء للنبات فينموها ويصير غذاء للحيوان . وكلما سقطت ورقة او نبتت شجرة اقبلت عليها الميكروبات فحللتها وأعادتها الى التراب غذاء لما يخلفها . وكلما مات حيوان انحلّ جسمهُ وعاد الى الارض والهواء غذاء للنبات وان لم يمت أكلهُ غيرهُ من الحيوان غذاء لهُ . وانواع النبات والحيوان ترتقي جيلاً بعد جيل وقرناً بعد آخر بحسب النواميس الطبيعية القاضية ببقاء الأصلح للبقاء . والانسان غير مستثنى من ذلك بل تجري عليهِ نواميس الطبيعة كما تجري على غيره . يولد معرّضاً للآفات الطبيعية فتتغلب عليهِ أو يتغلب عليها ويموت من غير نسل او يخلف نسلاً وتتوالى الاعقاب والاحقاب والارتقاء مستمرٌ وما الفرد سوى دقيقة في جسم هذا الوجود يقوم بهِ جزء من أجزاء هذا الرقي . هذه خلاصة أقوال العلماء الطبيعيين. فهل كشفت النطاء عن سر الوجود وازاحة الستار عن معنى الحياة ؟

وقف كاتب هذه السطور عند هذا الحد وأطلق للخيال العنان فلم يرَ أمامهُ الاّ ظلاماً دامساً فارتدّ على نفسهِ وهو يقول

عضّت اليراع سآمةً وفرارا ... من بادرات تلجم الأفكارا
وخرجت في ليل كأن نجومهُ ... احداق نصفور أصابت نارا
حيث الجزيرة لا أرى لي مؤنساً ... والنيل حولي لا يزيل أوارا
حتى بدا نور الصباح فشتهُ ... نور الهدى فأتيتهُ محضارا
وطلبت عن هذا الوجود وسره ... كشفاً يزيح عن الوجود ستارا
فأجابني سرُّ الوجود صحيفة ... طويت فظلت السر امست عثارا

فتشتُ عن سرّ الوجود وقصده وسألت عنهُ النطس والاحبارا
طافتْ ما كتبوا فما من مقنع وكتبت ما قالوا فلست اماري
اسماك هذا النيل لا تخفى وفي تاريخهُ قد حازت الادهارا
عاشت ومانت بين حبّ او قلى تحنو وتقسو لاهوًى لا ثارا
حرباً وسلماً واعتداء واحتكا ما لا تزى منها لها انصارا
وطوائف الاحياء بين وصفها قسّ البيان وعدُّها المقدارا
من مثل مكروب حقير لا يرى او مثل مُمساح طوى الانهارا
والنيل قُلّ ما شئت في تعظيمه نهر جرى كي يدرك الابحارا
لو الف نيل جُمّعت ما ماثلت من اوقيانوس واحد معشارا
بحر خضمّ والخلائق ملتهُ تبغي البقا والى الفنا تتبارى
كانت كذلك في العصور الغابرات المبقيات على الصفا آثارا
منها تولّدت الصخور وطالما قلب غدا صخراً ومهد قارا
والطير في انواعها وضروبها سامت ذكاءً تحلّقاً ومطارا
اسرابها تغدو وتقطع رُحّلاً خوف الردى والى الردى تتجارى
ونبات هذي الارض من أرز الى زوفا يبيد وان يعش اعصارا
فعلى مَ هذا الخلق ان كان الفناء مصيره والناس فيه توارى ؟

فأجابني ذِكر حقّ قائلاً اسمع وقل قولي «امنتُ عثارا»
هذي الخلائق كلهنّ دقائقٌ والكون من مجموعها قد صارا
والفرد فيها ليس من مجموعها الاّ حياة او تذكّى نهارا
ورقيّ هذا الكون يستدعي — اندثار دقائق ونقاية وبوارا
هذي تعاليم الفلاسفة الاولى جعلوا دجى الليل البهيم نهارا

أتموت في سبل الرقيّ ضحيةً ؟ ولصبر من اجل الرقيّ غبارا ؟
نورَ الخلائق مصدر النور الذي يهدي السكوا كب في السماء منارا
ان لم تقر عقل ابن آدم لم يجد نور الهدى بل زاد عنك فرارا
فاهدِ ايا نور البصائر مبشراً تحذوا الحقيقة خلةً وشعارا
الضوا عوامل عقلهم فتثلمت واستوفوا المبنى فزاد فرارا
ظُلَمٌ ونور العقل قصر عن هدًى وبغير نورك لا نشيم منارا

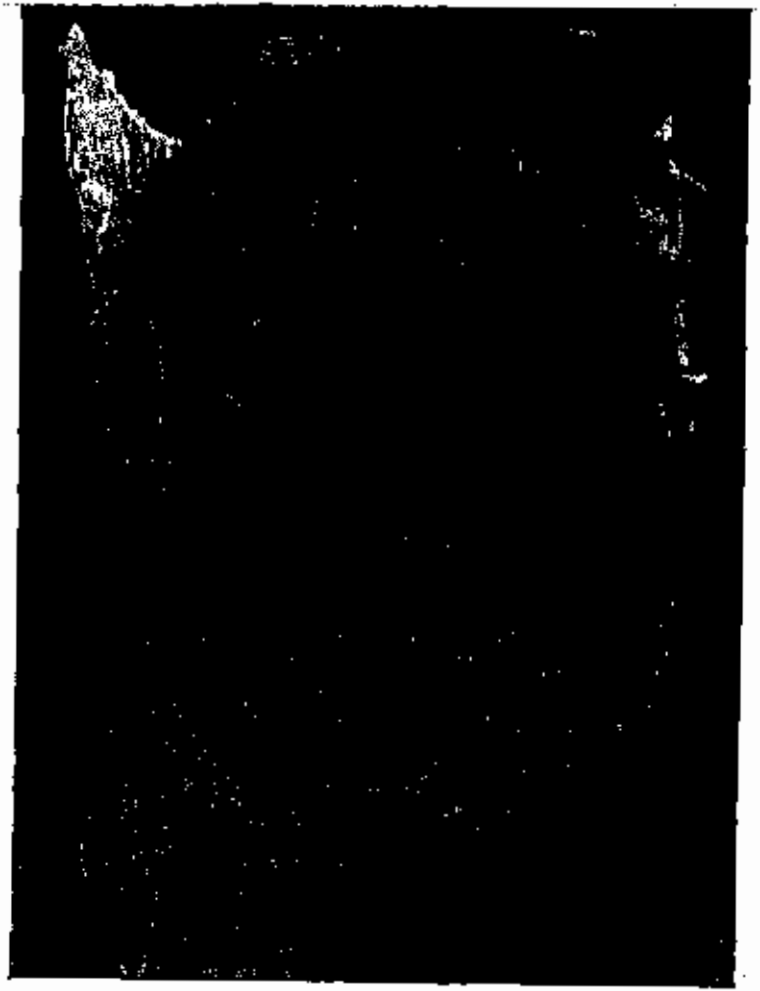

قطعة من نسيج غليظ أبيض عليها بالاسود رسم نباتي من عهد
احمد بن طولون (٢٥٤هـ — ٨٦٨ م)

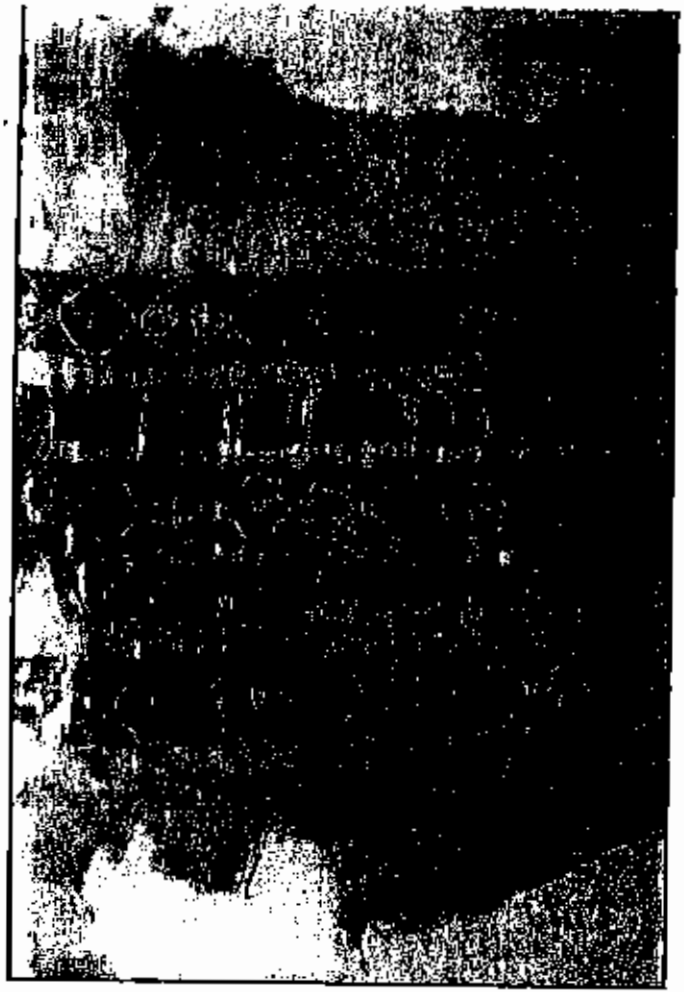

قطعة من الكتان باسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٢٧—٤٨٧هـ
(١٠٣٥—١٠٩٤م) بها جامات معينة الشكل—بكل جامة طائران متقابلان
بألوان مختلفة من أحمر وأصفر وأزرق وأسود وفي الوسط سطران من الكتابة الكوفية